من كتب الشرق والغرب

OEDIPE OU THESEE

ETIEMBLE

أوديب أو ثيسيوس*

ترجم منذ قليل ونشر بالعربية فى مجلد واحد مؤلفان لأندريه جيد : « أوديب » و « ثيسيوس » (١) . ولقد مر على ظهور « أوديب » ستة عشر عاماً ، أما « ثيسيوس » فلم يظهر فى الفرنسية إلا حديثاً ، وهو مع ذاك اختيار موفق ذلك الذى يجمع فى ثوب واحد لحظتين من لحظات تطور يمثل فيه أوديب وثيسيوس ، كلا منهما على حدة أولاً ، ثم هما معاً وجهاً لوجه أخيراً ، ضرورات يكمل بعضها بعضاً .

فأمام أبى الهول ولغزه « ما كائن يسير على أربع فى الصباح ، وعلى اثنين فى الظهر ، وعلى ثلاثة فى المساء ؟ » يجيب أوديب : إنه الانسان . الانسان هو الجواب على أسئلة الإنسان . وعلى كل فأوديب يمزج بين الانسان والفرد . وهو ، كما تشكو منه جوقة من رجال الشعب ، « فردى ممعن فى فرديته » . وأوديب الذى لا يعرف له أباً ، يفخر بأن سعادته وحالته من صنع يديه ، وأنه ليس مديناً فى ذلك لأحد : « لم توهب لى السعادة وإنما أخذتها » . وهو لا يحب العرافين ولا يرغب فى استشارة الآلهة « إن تيرسياس يثقل علينا بصوفيته وأخلاقياته » . وهذا الثائر يوافق رغم ذلك على أنه من المستحيل أن نمنع الشعب من إيثار المعجزات على التفاسير الطبيعية المنطقية . ويعترف : « من الخير أن يكون أمثالى فى الناس قليل » .

وهكذا يحكم أوديب على عرش طيبة ، ويخرج من نعيم إلى نعيم طيلة سنوات عدة ، ويتزوج من جوكاست ، فله امرأة وابنان وبنتان ، ويبقى

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

(١) نقلهما إلى العربية الدكتور طه حسين ونشرتهما دار الكاتب المصرى .

عرشه ثابتاً رغم الشقاء الذى تعانيه الكثرة . ثم إذا بوباء يحل ، ويقول وحى الآلهة كلمته وهى ليست أبداً : الانسان . فالآلهة تريد أن يعاقب قاتل الملك لايوس الذى كان يحكم طيبة ، قبل الملك الحالى . والبقية معروفة : فوحى الآلهة القديم كان يقضى بأن يهلك لايوس بيد ابنه ؛ فقرر لايوس التخلص من ذلك الابن اللعين ؛ ثم ألقى الطفل فاذا براع يتلقاه و يربيه ويعامله كأنه ولده ، ثم يشب ويكبر فاذا به يقتل فى الطريق رجلا مسنا أثقل عليه ، ثم يصل بعدئذ إلى طيبة والحزن مخيم عليها ، ويتزوج هذا الشاب الجميل من جوكاست . ثم يكتشف أوديب كل ذلك أثناء تحقيقه فى مقتل الملك لايوس . ولقد سبق أن تنبأ له كريون بذلك حين قال إن الله لا يلهم أولئك الذين ينظرون بعيونهم ؛ فأوديب ابن لايوس وقاتله ، وابن جوكاست وزوجها ، وأبو أنتيجون وأخوها ، أوديب الملك لم يكن يرى إلا سعادته ، ولقد عمى حتى تقبل القول بأن الله : « يوجد صلة خفية بين سعادة البعض وبين شقاء الكثرة » . وما يكاد أوديب يحس بأنه مذنب وقاتل حتى يفقأ عينيه . لقد سبق أن قال له تيرسياس : « إذا كانت عيناى مقفلتين فما ذلك إلا لكى تبصر عيون نفسى » . ولقد سخر أوديب من ذلك عندئذ . ولكنه عندما أمسى لا يبصر شيئاً أخذ يعترف بأنه هو الآخر « يشاهد الظلمة الالهية » . وذلك الذى كان يبنى سعادته على شقاء الآخرين ، ها هو ذا يتألم ليسعد الآخرين ؛ ولكن ظلامه لم يضئه إلا قليلا كما أشعره بذلك تيرسياس الذى لا يرحم ، حين قال له : « ما ينبغى أن تريد لهم السعادة و إنما ينبغى أن تريد لهم النجاة » . ويبدو أن الإله قد أوشك على الانتصار « خذ بحظك من الندم ؛ أقبل على الإله الذى ينتظرك . سيوضع عنك وزرك » .

ومن يكون فى جرم أوديب ولا يقبل ذلك العرض ؟ وهكذا ينتهى أمر أوديب بانتصار الكهنة .

ثم يفر من وطنه طيبة ، ويذهب إلى كولونا حيث كان ثيسيوس على وشك أن يلقاه . كان جيد يحلم منذ عهد طويل بكتابة لقاء البطلين وذلك ما تم فى كتاب « ثيسيوس » .

يقول ثيسيوس : « و إنه ليدهشنى ألا يتحدث الناس إلا قليلا عن التقائنا فى كولونا ، وعن هذه المواجهة بين مصيرنا فى آخر الشوط الذى كتب لكل واحد منا أن يقطعه » . و إنها

لصفحات رائعة الجمال تلك التى يبرز فيها جيد الرجل المقهور أمام الرجل المنتصر : يبرز فيها ابن لايوس أمام ثيسيوس . لقد استسلم أوديب لما يهيى له النجاة . ولكى يشهد عظمة الاله ، رضى أن يعمى ناظريه ، ولكى يستغفر من أخطائه العظيمة أمام محكمة نفسه ، اختار أن يرتكب خطايا جديدة . ولكى يفسر لنفسه ما قدر لذريته من عار لجأ إلى « نوع من الإثم المستأصل » (لن يستطيع الانسان أن ينقى نفسه من دون معونة إلهية) . لقد اعتنق أوديب المسيحية .

« قلت حين أتم حديثه : أيها العزيز أوديب لا يسعنى إلا أن أثنى على هذه الحكمة التى تصطنعها والتى تتجاوز طاقة الانسان . ولكن تفكيرى لا يستطيع أن يرافق تفكيرك فى هذه الطريق . فأنا ابن هذه الأرض ، وسأبقى ابنها ، وأرى أن الانسان كائناً من يكون ومهما يكن حظه من هذا الإثم المستأصل ، يجب أن يلعب بالورق الذى أتيح له فى هذه الدنيا» . تلك أقوال ثيسيوس قاهر المينوتور ، ذلك المينوتور الذى يحمله كل واحد بين جنبيه .

و يريد البعض أن يقول إن الحديث يصور جيد فى شخصيتين : جيد فى «اللاخلقى» *L'Immoraliste* وجيد فى «الباب الضيق» ؛ جيد فى « وهل أنت أيضاً كذلك ؟ » *Numquid et tu* وجيد فى «القوت» *Les Nourritures* وذلك خطأ . ويكون خطأ أيضاً أن نفترض أن جيد قد بقى متردداً بين إغراء هذين الصوتين . فاننا نعلم الآن رأى جيد فى الاله ، وفى الانسان وفى السعادة وفى النجاة . ولقد فسر نفسه فى « الاله ، ابن الانسان » . وهو يحذر من أن يمزج فى الاله « شيئين مختلفين تماماً حتى إنهما يتعارضان » . أولا الاله الذى يمثل الكون جميعه والقوانين الظاهرة التى تحكم العالم ، إلهاً شبيهاً بذوس Zeus لدى اليونان ، أوشبيهاً بـ« الاله أو الطبيعة » *Deus sive natura* فى مذهب سبينوزا ، وثانياً « جماع كل مجهودات الانسان نحو الخير ونحو الجمال » . يقصد بذلك شيئاً يشبه المسيح أو يشبه بروميتيه Promethée ومثل ذلك الاله « هو خير ما يصل إليه الانسان ، وكل الفضائل تساهم فى ذلك . ولكن ذلك الاله لا يسكن الطبيعة ؛ إنه لا يوجد إلا فى الانسان ولا يوجده إلا الانسان ، أوقل إنه يخلق فى الانسان . وكل جهد يقصد به إلى إبراز الاله بالصلاة إنما هو جهد ضائع » . وينتهى جيد إلى

أن يقول : ذلك وحده هو الاله الذى أستطيع وأريد أن أعبده .

وذلك الذى كان يرفض فى مبدأ الأمر الاختيار، انتهى بأن اختار بروميتيه ضد ذوس . وأمام أبى الهول الخالد أجاب هو أيضاً : الانسان بأكله ولاشئ غير الانسان . وهو يقول على لسان ثيسيوس : « وأنا أسعى وحيداً راضياً إلى الموت . فقد ذقت نعم الأرض ، و يحلو لى أن أفكر فى أن الناس بعدى وبفضلى سيرون أنفسهم خيراً منا وأسعد وأدنى منا إلى الحرية . ولقد أبليت فى خدمة الانسانية المستقبلة ما استطعت . لقد حييت . » فلم يعد الأمر أمر النجاة و إنما هو أمر السعادة . وقد كتب جيد فى أحد كتبه الأولى : «البحث عن النجاة هو الأثرة » . وعندما ترك ثيسيوس النجاة ، لم يعد يريد إلا أن «يقيم مدينته» ، وأن يخلف وراءه أثينا .

أوديب أو ثيسيوس ؟ ليس جيد من أولئك المانويين manichéens الذين يقسمون العالم إلى قسمين . فلقد كان جيد كأوديب ، و إنه ليذكر باحترام ذلك المقهور العظيم ، وهو يقترب من الثمانين ، ولكن جيد لم يعد كأوديب . لقد استطاع تيرسياس أن يقهر أوديب ولكنه لم يستطع أن يقهر أندريه جيد .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده